بسم اللّه الرحمن الرحيم

ندوة الفقه الاسلامي المنعقدة بوزارة الأوقاف والشئون الدينية

الفترة من٥ الى٨/٥/١٤٣٤هجرية الموالفق ٩ الى ٢٠١٣/١٢ م

ورقة بحث بعنوان العامل الجغرافي وأثره على العيش المشترك

مقدم الورقة ـ د ـ الهادي أحمد الهادي / معهد العلوم الشرعية

بداية فانه من الواضح ومن خلال الاقرار بواقع الحياة وحقائقها المعاشة أنه يعد ضربا من الخيال الاعتقاد بكون المجتمعات البشرية في الأنحاء المختلفة من المعمورة يمكنها أن تسير على نسق وخط واحد وعلى انسجام تام بينها. وذلك ما يحتمه التباين والاختلاف بينها في أمور شتى كثيرة تأريخية وجغرافية وعقائدية واجتماعية وثقافية وعرقية وغيرها. غير أنه من الواضح أيضا أن ثمة حاجة الى التعايش بين هذه المجتمعات والكيانات والى الاتصال والتعاون بينها. فالتعايش أمر حتمي تفرضه ضرورات تجنب العزلة والعداء والتصادم. وهو بلا شك معنى انساني راق وفكر متقدم وعنصر لا غنى عنه لصيانة الاستقرار الاجتماعي والسلم العالمي.

معاني العيش المشترك مبثوثة في نصوص التشريعات الاسلامية نصا وروحا بشكل واضح. ولنأخذ مثلا جانبا من النصوص التي تشير الى أهمية التعايش بين بني البشر ،ومنها قوله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير) الحجرات آية ١٣ ، وقوله تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) القصص آية ٨٣ ، وقوله (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في

الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) الممتحنة آية ٨

ان التعارف المذكور في الآية الأولى هو دون شك وبالنظر الى موجهات الدين العامة ومعانيه ومقاصده الكلية هو ذلك التعارف الذي يتشوف الى مد جسور التواصل والتعاون مع الآخرين املا في قطف ثماره النافعة لا الذي حصيلته العداوة والبغضاء والأذى المتبادل. وتؤكد الآية نفسها ذات المعنى حين تقرر حتمية بناء هذا التعارف على أسس التنافس الشريف المبني على التفاضل بالتقوى فحسب دون كافة العناصر المؤدية للفرقة والشتات والعداوة من نحو التمايز العرقي والجهوي والطبقي وغيره. وهو ما يدل عليه قوله تعالى في سياق الآية نفسها (ان أكرمكم عند الله أتقاكم). ثم يتأكد المعنى نفسه في الآية الثانية في قوله تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا...). وأما الآية الثالثة فتأتي مؤكدة لضرورة اسقاط دواعي التفرق والتنافر والكراهية النابعة عادة من النظرة التمييزية القائمة على العصبيات بأشكالها المختلفة ومؤكدة على امكانية التعايش المشترك حتى في ظل الاختلاف في العقيدة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم)

السؤال االمطروح الآن هو – بعد تأكيدنا على دعوة الدين الاسلامي وغيره من الأديان السماوية الأخرى الواضحة للتعايش المشترك والتعاون البناء والمثمر بين مختلف المجتمعات والكيانات البشرية والفئات الاجتماعية – هو أيهما أكثر فاعلية في احداث الواقع الانساني الأكثر تآلفا وتعايشا وتعاونا ، أهو العامل الجغرافي من خلال الملاصقة والاقتراب المكاني أم هو العامل الوجداني المنفعل بالمشتركات المعنوية القائمة دينية وعرقية وثقافية ولغوية وغيرها.

ان الاجابة على هذا التساؤل لابد أن يسبقها اقرار بكون العاملين الجغرافي والوجداني يمكنهما أن يسهما بشكل واضح في رفد معاني العيش المشترك متى أحسن توظيفهما. وبعبارة أخرى فان للارادة الانسانية دور هام في دفع هذا التعايش الى أعلى درجاته. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان تضافر هذين العاملين معا محقق بلا شك وضعا أكثر وأعمق فاعلية وتأثيرا.

على أن المقارنة بين درجة فاعلية كل من العوامل الجغرافية والوجدانية تنشئ في تقديري قناعة بكون العوامل الوجدانية هي الأكثر فاعلية وأثرا. ذلك أن القرب الجغرافي بل وحتى الملاصقة المباشرة لا يكفيان وحدهما ودون المعاني الوجدانية المشتركة لاحداث حالة التعايش المطلوبة ، بل قد يصبحا أحيانا وبالا عند غياب هذه العناصر الوجدانية حيث يؤدى القرب والملاصقة الى الاحتكاك والصراع المستمر، وكم من جماعات ودول انشطرت وتكرس العداء بينها بسبب فشلها في كبح جماح التأثير السالب للفوارق العرقية أو الدينية أو غيرها على وحدتها. وعلى عكس ذلك نشهد جسورا من التواصل والتعاون تمتد بين مجتمعات ودول تفصلها المسافات الشاسعة أو التضاريس الجغرافية.

واذ خلصنا الى ايجابية هذه العوامل الوجدانية وعمق أثرها وتفوقها على العوامل الجغرافية ، فما هي اذا هذه العوامل ؟ الواقع أن بعض هذه العوامل مستمد من الواقع القائم دون أن يكون للارادة الانسانية دور فيها الا توظيفها والابتناء عليها في تعميق معاني التعايش المشترك، كما أن بعضها يرجع الى ارادة المجتمع ووعي أفراده ومدى استجابتهم للمعاني الانسانية الجامعة.

أولا – العوامل المستمدة من الواقع القائم : وهي عوامل ذات علاقة بمدى تفتح الرؤى لدى الكيانات والمجتمعات البشرية بمكوناتها الفردية والمؤسساتية ودرجة تسامي فكرهم الانساني واتساع أفقهم. وأهم هذه العوامل ما يأتي :

١-المرونة في طبيعة العلاقة مع الآخر والاقتناع بقبوله بصرف النظر عن الفوارق العرقية والدينية والمذهبية وغيرها. فلا تنافر بسبب الاختلافات المذكورة ولا عداء ولا استعلاء (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا). ومن ثم تتراجع وتخفت في مثل هذا المناخ وفي ظل مثل هذه النظرة المعتدلة المتبادلة صيحات التمايز والتهميش والاستعلاء والازدراء والكراهية وتتساقط دواعي الفرقة والتوتر والعداء. ان المرونة المذكورة انما تعبر عن فهم واع لواقع الحياة وحقائق الأشياء ، وذلك أن هذا التباين والاختلاف في صوره المختلفة انما هو وليد ظروف تأريخية وجغرافية وبيئية خارجة عن ارادة الكل ومنبتة الصلة بمعاني الكسب والاختيار.

٢-التسامح واعتدال النظرة : وتمثل العقلية المطبوعة بالمرونة نفسها بعدا تسامحيا استنادا الى رؤيتها الشمولية المتفتحة بحيث ترى مثل هذه العقلية في التباين والتمايز القائم عناصر خلاقة للتكامل والتعايش المشترك وليس مدعاة الى الفرقة والتشتت والتشرزم. فالمشهد عندها ومن خلال رؤيتها المتسامحة ومنظورها الشمولي هو مشهد واحد مركب من جزئيات متعددة تتلاصق ليشكل تلاصقها والتحامها تكميلا للصورة والمشهد بينما هو في حال النظرة المقابلة والتي ترى الأشياء من زاوية معينة مصبوغة بعقلية الاقصاء والاستعلاء والتطرف هو عبارة عن مشاهد عدة لا يربط بينها رابط ولا ينبغي أن يجمع بينها جامع. ولنا في الآية الكريمة وهي قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين) ما أفاد أن ثمة امكان واضح لتآلف هذه الجزئيات وتكاملها حتى مع اختلاف العقيدة اذ ما صدقت وتقدمت ارادة التعاون والتسامح والعيش المشترك الآمن.

٣-الوعي والنضج الفكري : ان تطور الوعي بأشكاله المختلفة لدى الأجيال المتعاقبة واتساع أفقهم ونظرتهم للواقع بأبعاده كافة اجتماعية وثقافية وغيرها وبروز القيم الانسانية والأخلاقية والرؤى الكلية لدى الناس يؤذن باذن الله تعالى باللقاءات المشتركة وبمد جسور التواصل والتعاون والتآخي بين مختلف الشعوب والأمم مهما امتدت المسافات الفاصلة بينها. على أنه لا تزال ثمة حاجة الى ازالة الكثير من المفاهيم المغلوطة والرؤى المتطرفة المرتبطة بشكل خاص بالجوانب العقائدية والعرقية والطبقية ونحوها ، وثمة حاجة أيضا الى معالجة أزمة غياب الثقة والتي هي وليدة ترسبات الماضي المثقل بالممارسات المتطرفة والنظرات الضيقة الأفق. كما لا تزال هنالك حاجة الى توعية وتبصير جماعات التطرف والعنف والتي تؤسس منهجها وسلوكها وعقيدتها الدينية والمذهبية على قاعدة الاقصاء والعداء والاجتثاث أو تقيم رؤاها الاجتماعية على بنيان من الازدراء والتهميش ونكران حقوق الآخرين. ولا تزال هذه المفاهيم وهذه الجماعات تسهم في تعطيل أو اجهاض المساعي الهادفة الى بناء جسور التفاهم والتعاون وفي تعكير صفو العيش المشترك.

ان هذه الندوة التي تطرح مناقشة سبل ترسيخ معاني الفهم والتواصل والتعاون والعيش المشترك هي في تقديري حلقة من جملة كثيرة من حلقات التوعية التي ينبغي أن يتم يتم تنشيطها واسهام من اسهامات مصطفة أو يؤمل لها أن تصطف وأن تتضافر ومن خلال مختلف وسائل التوعية والاعلام والتعليم بغية معالجة الآفات والمعوقات التي تعطل مسيرة العيش المشترك وتشوه صورته.

أقول في نهاية حديثي ان كون العوامل الوجدانية التي أشرت الى أهميتها ودورها المقدر في رفد معاني التواصل والعيش المشترك لا يعني ولا

ينبغي أن يفهم منه اهمال أو التقليل من دور العامل الجغرافي في رفد تلك المعاني أيضا.

ونسأل الله تعالى أن يسدد الخطا وأن يبارك المقصد الى تحقيق معاني التواصل والتعاون والعيش الآمن للناس كافة والى ارساء قيم الخير والمعروف في كل أرجاء المعمورة.

والله الموفق والهادي الى سبيل الرشاد

د- الهادي أحمد الهادي / معهد العلوم الشرعية/ وزارة الأوقاف والشئون الدينية

١٤٣٤/٥/١٩هجرية الموافق ٢٠١٣/٣/٣١ م